آيات الهوان والمهانة في القرآن الكريم (دراسة موضوعية)

م. د. صالح محمد حميد
التدريسي في كلية الأمام الأعظم

المقدمة

الحمد لله مُعزِّ عباده المؤمنين، ومُذلّ أعدائه الكافرين، بنص كتابه المبين، الذي جعل القرآن شفاء لما في الصدور، وهدىً ورحمةً للمؤمنين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر الميامين، ومن اهتدى بهديهم وانتهج نهجهم وسار على دربهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد؛ فأنّ القرآن الكريم هو الدستور الجامع لأحكام الإسلام، وهو المنبع الذي يفيض بالخير والحكمة على القلوب المؤمنة، وهو أفضل ما يتقرب به المتعبدون إلى الله تعالى، بالقراءة والتدبر والتفكر، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): (إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم)[1]، فإنّ المتدبر لآيات الذكر الحكيم، يرى كيف أنّ الله تعالى يعزّ المؤمن وينصره وكيف يذل الكافر ويهينه؛ حينها يدرك معنى أن الله هو المعز المذل، فكان موضوع بحثي هو الآيات التي ذُكِر فيه لفظ (الهوان والمهانة في القرآن الكريم)، وقد وردت هذه الآيات الكريمة في القرآن الكريم بثلاث معانٍ وهي: السكينة والوقار، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣]، والسهولة واليسر، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مَرْيَم الآية ٢١]، والثالث: بمعني الإهانة والخزي والذل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البَقَرَة الآية ٩٠]، وقد تركز عملي لبيان هذه المعاني، فقمت بجمع الآيات التي ورد فيها لفظ الهوان والمهانة في القرآن الكريم، وكات ست وعشرون آية، ثّم استخرجت منها عنوانين للمباحث والمطالب، وقمت بدراسة كل آية حسب موضوعها، واعتمدت منهج الدراسة الموضوعية لبحثي، وقد اقتضى منهج البحث أن أقسمه على تمهيد وأربعة مباحث تسبقه مقدمة وتليه خاتمة:

وقد ذكرت في بداية بحثي: تمهيد، بينت فيه: مفهوم الهوان والمهانة، في اللغة وعند المفسرين (رحمهم الله).

❊ ❊ ❊

(١) مُصنف ابن أبي شيبة : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت: ٢٣٥ هـ)، (١٦٥/٧).

وفي المبحث الأول

ذكرت صور الهوان والمهانة في آيات الخلق والتكوين

- **وفيه ثلاثة مطالب:**

١. المطلب الأوّل: إثبات القدرة الإلهية في بدأ الخلق وإعادته.
٢. والمطلب الثاني: قدرة الله على الخلق والإيجاد: في معجزة ولادة أنبياء الله يحيى وعيسى (عليهم السلام).
٣. والمطلب الثالث: خضوع كل ما في الكون لعزة الله (سبحانه وتعالى).

وفي المبحث الثاني: ذكرت صور الهوان والمهانة في آيات ومشاهد القيامة، والقصة القرآنية ، وفيه مطلبان:

١. المطلب الأول: صور الهوان والمهانة في آيات ومشاهد القيامة .
٢. المطلب الثاني: صور الهوان والمهانة في القصة القرآنية.

وفي المبحث الثالث: ذكرت صور الهوان والمهانة بين اهل الطاعة والإيمان واهل الكفر والعصيان، وفيه مطلبان:

١. المطلب الأوّل: أهل الطاعة والايمان.
٢. المطلب الثاني: أهل الكفر والمعاصي.

وفي المبحث الرابع: ذكرت صور الهوان والمهانة عند أهل الكتاب، وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: ذم اليهود على سوء افعالهم.
المطلب الثاني: تقرير كفر اليهود لفساد عقيدتهم وبطلان أعمالهم.

تمهيد

مفهوم الهوان والمهانة

أولاً: الهوان والمهانة في اللغة:

الهوان والمهانة في اللغة: على وجهين، أحدهما: تذلّل الإنسان في نفسه لِما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرْقان الآية ٦٣]، أي: يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر.
والثاني: أن يكون من جهة متسلّط مستخفّ به فيذمّ به نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأَحْقَاف الآية ٢٠] (١). تقول: هانَ يَهُونُ هُوْناً وهَواناً ومَهانَةً: أي ذَلَّ، فهو هَيِّنٌ وهَيْن، وأَهْوَنُ. وهانَ يَهُونُ هُوناً بالضمّ: أي: سَهُلَ. والعرب إذا أرادت بالهون معنى الهوان ضمّت الهاء، فتقول (الهُونُ)، وإذا أرادت به الرفق والدّعة وخفّة المئونة فتحت الهاء، فتقول(الهَوَن). وعَلى هَوْنك وهَيْنَتكَ، أَي على رِسلك. والمُهْوَئنُّ: المكان البعِيدُ، أَو الوَهْدةُ.

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(ت: ٣٩٣هـ)،(٢٢١٨/٦)، مادة(هون)، والمفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى(ت: ٥٠٢هـ)،(ص:٨٤٨)، مادة(هان).

واهْوَأنَّت المفازةٌ: اطْمَأنَّت في سَعَة[١].

ثانياً: مفهوم الهوان والمهانة عند المفسرين:

من خلال استقراء مفهوم الهوان والمهانة في كتب التفسير، نستطيع أن نحصرها في ثلاث معانٍ، على النحو الآتي:

أوّلها: السكينة والوقار والتواضع[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣].

والثاني: والسهولة واليسر[٣]، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مَرْيَم الآية ٩]، والثالث: بمعني الإهانة والخزي والذل[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البَقَرَة الآية ٩٠].

* * *

المبحث الأول

صور الهوان والمهانة في آيات الخلق والتكوين

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأوّل: إثبات القدرة الإلهية في بدأ الخلق وإعادته.**

إنّ من الأدلة على عظمة الخالق (سبحانه وتعالى)؛ وجود هذه المخلوقات العظيمة، فإنّ الله (عز وجل) لو لم يكن خالقاً؛ لَما وُجد شيء في هذا الكون، فالخالق هو أصل كل حقيقة، فجميع المخلوقات تنتهي إلى خلقه وإيجاده سبحانه وتعالى، واسمه سبحانه (الخالق) مما أقرت به جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم، يقول ابن القيم :(إنّه ليس في المعلومات أظهر من كون الله: (خالقًا)؛ ولهذا أقرَّت به جميع الأمم - مؤمنهم وكافرهم- ولظهور ذلك؛ وكون العلم به بديهيًا فطريًا؛ احتجَّ الله به على من أشرك به في عبادته فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزُّمَر الآية ٣٨])[٥] . فإنّ الحديث عن الآيات العظيمة في مسألة بدء

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى(ت: ٨١٧هـ)،(٣٥٦/٥)، مادة(هان)، و لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري(ت: ٧١١هـ)،(٤٨٣/١٣)، مادة(هون).

(٢) ينظر: جامع البيان، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الاملي الطبري(ت٣١٠هـ)، (٢٩٤/١٩).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي(ت: ٤٦٨هـ) (٢١٦/١٤).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، (٦٠٢/٣)

(٥) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الموصلي (ت: ٧٧٤هـ)، (ص:٥٦).

الخلق، والدلائل العقلية على إمكان الإعادة بعد البعث، إنّما هو محور مهم للقطع بقدرة الخالق العظيمة ، وأنّه لا يعجزه شيء، ومن ذلك الإعادة بعد الموت. وإنّ جميع الممكنات بالنسبة إلى قدرة الله على السوية. أمّا قوله تبارك وتعالى في سورة الروم وهي موضع بحثنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرُّوم الآية ٢٧] ، فقد ورد في سياق مجادلة كفار العرب الجاحدين للبعث بعد الموت، وتضمنت دليلاً عقلياً قاطعاً في إمكان البعث على أصولهم التي يتعارفون عليها، لأنّ المعروف لدى البشر أنّ إعادة الشيء اسهل من ابتدائه : فيكون المعنى: أي أنّ في نظركم الإعادة أهون من الإبداء؛ لأنّ من يفعل فعلاً إذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون عليه[١]. ومن صفات الله سبحانه وتعالى: أنه هو (المبدئ المعيد)، فبدأ الله الخلق أحياء ثم يميتهم ثمّ يحييهم، فإنّ الله تعالى قد خلق الإنسان، ولم يكن شيئاً قبل الخلق، ، أفلا يعيده، وقد صار شيئاً[٢].

وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم الآية ٢٧] ، قولان معتبران، وهما:

الأول: أنه أرادَ وهو أهونُ عليه عندكم وفي تقديركم إذا كان ابتداءُ الشيء لا على مثال ونظيرٍ تقدم أصعبَ عندكم من إعادته على مثالٍ، فضربَ لهم المثلُ بما عندهم ثمّ قال عقيب ذلك: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الرُّوم الآية ٢٧] ، أي أنني أجل عن أن تكون هذه صفتي. والثاني: أراد اهون على الخلق؛ لأنّه سبحانه وتعالى يقول لهم: كونوا أحياء ناطقين فيكونون؛ وذلك أسهلُ عليهم من كونهم نطفةً ثم علقةً ثمّ مضغةً ثم طفلاً، والمعنى على هذا القول في أنه هيّن عليه، فيكون أهونُ بمعنى هيّن، لأن ذلك مستعملٌ في اللغة [٣].

- **المطلب الثاني: قدرة الله على الخلق والإيجاد: في معجزة ولادة يحيى وعيسى (عليهم السلام).**

هناك ترابط قوي بين ولادة عيسى (عليه السلام)، وبين ولادة يحيى (عليه السلام)، وقد ذُكِرت القصتين في سورة مريم، ووصف خلقهم بالهين، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مَرْيَم الآية ٩] ، فلمّا ذكر الله قصة ولادة يحيى(عليه السلام)، وأنّها كانت من الآيات العجيبة، انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، وهو ولادة عيسى (عليه السلام) تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى، فولادة سيدنا يحيى (عليه السلام) كانت بإعجازٍ دون إعجاز ولادة سيدنا عيسى(عليه السلام)، فكأن الله سبحانه وتعالى هيَّأنا من معجزةٍ إلى معجزة، وفيه إشارة إلى أنّه تعالى يخلق ما يشاء

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٩٧،٩٨/٢٥)، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي(ت: ٨٨٥هـ)، (٥/ ٦١٧) ، ولله الأسماء الحسنى: عبد العزيز بن ناصر الجليل(٩٧/٢٥).

(٢) ينظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: أحمد بن عبد الله الزهراني (ص: ٦٢).

(٣) ينظر: الانتصار للقرآن: القاضي أبو بكر الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد المالكي (ت: ٤٠٣هـ)، (٥٩٢/٢).

تارة بسبب قوة، وتارة بسبب ضعف، وتارة بلا سبب، وهذا بحسب توقعات البشر المعتادة والقدرات الشائعة يعتبر من العجائب أو خوارق العادات والمعجزات، أما على قدرة الله تعالى العظمى فإن الأمر هيّن؛ لأنّ الخلق والأمر والإرادة الإلهية فورية الأثر، لا يتأخر شيء عن مراد الله إذا شاء، حتى ولو كان المعتاد خلاف ذلك[١]. وسأبين المعجزتين بإيجاز، لنستلهم منهما العبرة والمواعظ:

أولاً: بشارة نبي الله زكريا (عليه السلام)، بيحيى (عليه السلام).

تعد ولادة يحيى (عليه السلام)، دليل عظيم على قدرة الخالق الفائقة، وعلى كمال جوده ورحمته؛ وليس في الخلق هين وصعب على الله. ووسيلة الخلق للصغير والكبير، وللحقير والجليل واحدة: كن؛ فيكون. فالله هو الذي جعل العاقر لا تلد، وجعل الشيخ الفاني لا ينسل، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل. وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء. وإن كان كل شيء هينا على القدرة: إعادة أو إنشاء. فإنه سبحانه تعالى يسهل عليه كل شيء، سواء كان خلق الإنسان من العدم، أو من طريق التوالد، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مَرْيَم الآية ٩] . فعلى الأنسان أن يقوي حسن الظن بالله لما هو متصف به تعالى من كمال القدرة والكرم، والجود والرأفة والرحمة[٢]. فقد استجاب الله تعالى دعاء زكريا (عليه السلام) الذي طلب من الله أن يرزقه غلاماً يرثه العلم والنبوة، فجاءته البشارة ، بأنه سيولد لك غلام واسمه (يحيى)؛ فتعجب نبي الله زكريا (عليه السلام)، من هذه البشارة حين أستجاب الله دعائه، وفرح فرحا شديداً، سأل عن كيفية الولادة مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أوّل عمرها، مع كبرها وكبر زوجها، فقد انتهى سنه، وكبر ونحل عظمه، وفقد القدرة على جماع النساء. قال ابن عباس(رضي الله عنهما): (كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين)[٣]. فالأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئا، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مَرْيَم الآية ٢١] ، أي إيجاد الغلام لك هين علي في حال كوني قد خلقتك قبل هذا الغلام ولم تكن أنت موجودا؛، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم، وهذا دليل على القدرة

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٥٢٦/٤)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي(ت: ١٣٧٦هـ)، (٤٩١/١)

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، (٢٣٠٣/٤).

(٣) مفاتيح الغيب(١٨٢/٢٢)، و اللباب في علوم الكتاب: لأبي حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقي الحنبلي(ت: ٨٨٠ هـ) (٥٨٧/١٣).

الإلهيــة التي لا نظير لها، فإن الله تعالى يســهل عليــه كل شيء، وأمــر الخلق من العــدم أو من طريق التوالد ولو مع وجود الكبر والعقم، ســواء في شأن القدرة الخالقة[١].

ثانياً: ولادة عيسى (عليه الســلام): إنّ حمل مريم (عليها الســلام)، وولاتها بعيسى(عليه الســلام) يعتــبر من أكبر الخــوارق التي تنبئ عــن أن الله قــد خلق هــذا الكون وأوجــده بــإرادة عظيمة، فولادة عيسى (عليه الســلام) بنفســها أمرٌ خارق للعــادة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مَرْيَم من الآية ٢٠ الى الآية ٢١] ، فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه، هين على الله، فأمام هذه القدرة التي تقول للشيء كن فيكــون، كل شيء هين، ســواء جرت به الطريقة المعهودة أو جرت بغــيره[٢]. فهذه دلالة وعلامة للنــاس على قــدرة خالقهم وبارئهــم الذي نوع في خلقهــم فخلــق آباهــم آدم من غــير ذكر ولا أنثى، وخلــق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية مــن ذكر وأنثــى؛ إلا عيسى فإنّــه أوجده من أنثــى بلا ذكر فتمت القســمة الرباعية الدالة عــلى كمال قدرته وعظيم ســلطانه فــلا إله غيره ولا رب ســواه[٣]. وأنّ الله ســبحانه وتعالى أراد أن يجعــل هذا الحادث الغريــب علامةً للناس، وآية على وجوده سبحانه وتعالى وقدرته العظيمة، فمعجــزة الإيجاد من غير أب، أُكدت بمعجزات أخرى، أولهــا: الرطب الجني مــن النخل بهزه، ومناداتــه لها وهو في المهــد، وحديثه في المهد حديث الحكــماء، فكل هذه خوارق للأســباب والمســببات تــدل عــلى أنّ الإيجــاد والتصوير والتربية كلها بإرادة الله العليم الحكيم خالق كل شيء، ومنها الأســباب والمســببات. تعالى الله علوًا كبيراً[٤].

- **المطلب الثالث: خضوع كل ما في الكون لعزة الله (سبحانه وتعالى)**

جاء البيان من اللَّه تعالى لخضوع الناس جميعاً والكون كلــه لإرادته، بقوله تعــالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَــن فِي ٱلسَّــمَٰوَٰتِ وَمَــن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾ [الحَـج الآية ١٨] . فإنّه سبحانه وتعالى، المستحق للعبــادة وحده لا شريك له، فــكل ما في الكون يســجد لعظمتــه، وكل ما في الكون يســجد لله

(١) ينظر: تفسـير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسـماعيل بن عمـر بن كثير القـرشي (ت: ٧٧٤هـ)، (٢١٥/٥)، وتيسـير الكريـم الرحمـن(٤٩٠/١)، والتحريـر والتنويـر: محمـد الطاهر بـن محمد بن محمـد الطاهر بن عاشـور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، (٧٢/١٦).

(٢) ينظـر: في ظلال القرآن (٢٣٠٦/٤)، والمعجزة الكبرى القرآن: محمـد بن أحمد بن مصطفى بـن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، (ص:٢٩٤).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٢٢٠/٥).

(٤) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن(ص:٢٩٤).

طوعـاً وكرهاً، وسـجود كل شيء بما يختص به (سبحانه وتعالى)، فيسجد له من في السموات: وهـو الملائكة، ومـن في الأرض وهـم الإنس والجن، والشـمس والقمـر والنجوم من العوالم العلوية، والشـجر والدوابّ من العالم السفلي، وكثير من الناس حقّ له الثواب فيسجد لله طوعا متعبداً مختاراً لذلـك ، وكثير حق عليه العقاب، ممن امتنع واستكبر وأبى، وقد نص الله سبحانه وتعالى على الشمس والقمر والنجوم وما بعدها بالذكر هنا؛ لأنّهـا قد عُبدت من دون الله؛ فأبان تعالى أنّها كذلك تسـجد لخالقها، وأنّها مربوبة مسخرة منقادة لله تعالى[١].

﴿وَمَـن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡـرِمٍۚ﴾ [الحج الآية ١٨] أي من اهانه الله بالشقاء والكفر لسوء استعداده للإيمـان؛ فلا يقدر أحـد على دفع الهـوان عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَـلُ مَا يَشَـآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج الآيـة ١٨] أي يعذب ويرحـم، ويرفع ويخفض، ويُغني ويُفقِر، ويعـز ويذل، ولا اعتراض لأحد عليه سـبحانه. فإنّ الله سـبحانه وتعالى يفعل في عباده ما يشاء من الإهانة والإكـرام، لا رادّ لقضائه، ولا معقّب لحكمه[٢].

(١) ينظر: تفسـير القرآن العظيـم(٤٠٣/٥)، وروح المعاني في تفسـير القـرآن العظيم والسـبع المثاني: شـهاب الدين محمود بن عبد الله الحسـيني الألـوسي (ت: ١٢٧٠هـ)، (١٢٥/٩).

(٢) ينظـر: بحـر العلـوم: لأبي الليـث نـصر بـن محمـد السـمرقندي(ت: ٣٧٣هــ)، (٤٥٣/٢)، والجامع لأحكام القرآن(٢٤/١٢).

المبحث الثاني

صور الهوان والمهانة في آيات ومشاهد القيامة، والقصة القرآنية

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: صور الهوان والمهانة في آيات ومشاهد القيامة**

يوبخ الله الكفار يوم القيامة على سـوء صنيعهم في الدنيا، فتتلقاهم الملائكة بالتعذيب والتأنيب والوعيـد وهم يسـتلون أرواحهم، قـال تعالى : ﴿ وَمَـنۡ أَظۡلَمُ مِمَّـنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَـأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَـنۡ ءَايَـٰتِهِۦ تَسۡـتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام الآيـة ٩٣] . فيا له من مشـهد كئيب مكروب رعيب يجللـه الخـزي والهـوان ويصاحبـه التنديـد والتأنيـب؛ وهذا كله عندما يكون الشـخص في أضعـف الحالات وهـو في سـكرات الموت، والملائكة تبسـط أيديهـا بالعذاب، وتطلب من أرواحهم الخـروج! فجزاء الاسـتكبار على الله العذاب المهـين، وجزاء الكذب عـلى الله هذا التأنيـب الفاضـح[٣]. وفى هـذا العـرض يظهر

(٣) ينظر: في ظلال القرآن(١١٤٩/٢).

المصير الذي يسير إليه كل ظالم، حين تنتهى أيامه القليلة في الدنيا، وإذ هو على مشارف الحياة الآخرة، وملائكة الجبار (جل جلاله) يمدّون أيديهم لانتزاع ثوب الحياة الذي يرتديه الجسد، هذا الجسد الذي كان يمشى في الأرض فخورا ومختالاً ومتكبراً، يحسب أن ماله وما يملك سوف يخلده، وما هي إلا لحظات، يعالج فيها سكرات الموت، حتى يكون جسد هامد، يصبح سوأة بعد ساعات، ويجب أن يُخفى ويُوارى به عن الأنظار، ويُغيّب في التراب وليس هذا فحسب، بل إن ذلك هو بدء لحياة أخرى غير الحياة التي كان فيها، فإنّه سوف يبعث من جديد، ليلقى في جهنم وبئس المصير، وليكون وقودا لجحيمها المستعر. قال عكرمة وقتادة: نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب، صاحب اليمامة، فإنه كان يدعي النبوة والرسالة من عند الله على سبيل الكذب والافتراء[1].

ثمّ بعد ذلك ننتقل إلى صورة ثانية من صور المهانة للكفار وهم في النار، وكيف تكلمهم الملائكة، وتوبخهم على سوء صنيعهم في الدنيا: قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأَحْقَاف الآية ٢٠] . وهو عرض لمشهد من مشاهد يوم القيامة، يرى فيه الكافرون انفسهم وقد وقفوا على الحساب، والمساءلة، على ما كان منهم في الحياة الدنيا، من بغي وظلم، واستكبار في الأرض بغير الحق. إن الكافرين والضالمين، إذ يعرضون على النار في هذا اليوم العظيم، ويساقون فيه إلى العذاب الأليم ، فيقال لهم وهم على شفيرها: هذا جزاؤكم، بما عملتم فلقد أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا، واستمتعتم بها، ولم تدخروا منها شيئا لهذا اليوم، فلقد كانت معكم عقول تفكرون بها، وآذان تسمعون بها، وأعين تبصرون بها، فما استعملتم منها شيئا في سبيل التعرف على الله (سبحانه وتعالى)، والاهتداء إليه، بل صرفتم هذا كله إلى الكفر والضلال. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأَحْقَاف الآية ٢٠] فلا يكون لكم إلا الهوان والإذلال؛ لأنّه هذا اليوم هو الذي تهدر فيه آدميتكم، وتذهب كرامتكم، إذ كنتم بلا عقل، ولا سمع، ولا بصر! فالطيبات التي أذهبتموها في حياتكم الدنيا، هي تلك القوى التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيكم، من عقل، وسمع، وبصر، ونحوها مما يكون به الإنسان إنسانا، والتي يكشف بها مواقع الهدى والخير.. وقد عطل الكافرون هذه القوى، وأفسدوها حين صرفوها في وجوه الفساد، وفى اصطياد اللذات وجلب الشهوات[2] .

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت: ٥٤٢هـ)،(٣٢٢/٢)، والتفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب(ت: ١٣٩٠هـ)،(٢٤٠/٤).

(٢) ينظر: المعجزة الكبرى القرآن: (٢٥٨/١).

• **المطلب الثاني: صور الهوان والمهانة في القصة القرآنية.**

إنّ القصص ترد في القرآن الكريم في مواضع عديدة ومناسبات كثيرة، وهذه المناسبات التي تساق القصص القرآنية لها، هي التي تحدد سياق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والطريقة التي تأتي عليه؛ وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها، وتلقي إيقاعها، وإنّ الغرض من ذكر القصة في القرآن، ليس للتسلية والاستمتاع وقضاء الوقت الشيق ؛ وإنّما الغرض الأساسي والحقيقي هو للتنبيه والإشارة لمسائلة مهمة وخطيرة تهدف القصة إلى ايصالها للقارئ والسامع، ومن ذلك مثلاً التركيز على شناعة الشرك والمعاصي، وعدم امتثال الأوامر، ومعاقبة الله سبحانه وتعالى عليها، والإيمان بنصر الله تعالى وتأييده، وظهور ألطافه وأفضاله في حق عباده المخلصين، والتذكير بالموت وما بعده أو التذكير بالآخرة، وما إلى ذلك من الأغراض[١]، وقد ذكرت القصة القرآنية في موضوع بحثنا في ثلاثة مواضع:

أولاً : قصة قبيلة ثمود، قوم نبي الله صالح (عليه السلام).

فحال قبيلة ثمود وما نزل بهم من عذاب، كان بسبب اختيارهم الضَّلَالَة عَلَى الْهدى، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فُصِّلَت الآية ١٧] وثمود هم القبيلة المعروفة الذين سكنوا الحجر وحواليه، الذين أرسل الله إليهم نبيه صالح (عليه السلام)، يدعوهم إلى توحيد ربهم، وينهاهم عن الشرك، وآتاهم الله الناقة، آية عظيمة، التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح (عليه السلام)، من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، يشربون لبنها يومًا ويشربون من الماء يومًا، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض الله[٢]. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فُصِّلَت الآية ١٧] أي: داهية العذاب الذي يهين صاحبه ويخزيه، وهي الصيحة والرجفة والذل والنكالز والهُون: أي المهين، وصف به للمبالغة في العذاب والإهانة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فُصِّلَت الآية ١٧] أي: بكسبهم الخبيث من الشرك والمعاصي، فقد كذّبوا صالح وعقروا الناقة[٣].

ثانياً: قصة موت نبي الله سليمان(عليه السلام).

أنّ قصة نبي الله سليمان (عليه السلام)، وتسخير الريح له، وتحكّمه بالشياطين والجن وما إلى ذلك، مما تتكاثر حولها الروايات والتصورات والأقاويل، ومعظمها مستمد من الإسرائيليات

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير: الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» (ت:١١٧٦هـ)،(ص:٧٠).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٥٤٥/٤)، وروح المعاني(٣٦٦/١٢)،

(٣) ينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأبي العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الصوفي (ت: ١٢٢٤هـ)، (١٦٨/٥)، وفتح القدير: محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)،(٥٨٦/٤).

والتخيلات والأوهام؛ ولكي لا نضل في هذا التيه، فإننا نقف عند حدود النصوص القرآنية، فالابتعاد من الخوض في تلك الروايات أولى، والاكتفاء بالنص القرآني أسلم، مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعداه[١]. قال تعالى عن موت نبي الله سليمان (عليه السلام): ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٤] . لمّا بين الله (عز وجل) عظمة سليمان وتسخير الريح والشياطين والجن له، فكان ربما استبعد موت من هو على هذه الصفة والحال من ضخامة الملك وسعة الحال ونفوذ الأمر وكثرة الجنود، فأشار الله (عز وجل) إلى سهولته بقرب زمنه وسرعة إيقاعه فنبّه الخلق على أن الموت لا بد منه، ولو نجا منه أحد لكان نبي الله سليمان (عليه السلام) أولى بالنجاة منه، وفي طريقة موته عبرة لمن أعتبر، فقد كان نبي الله سليمان (عليه السلام) يقف في عبادة الله (عز وجل) ليلة كاملة ويوما تاماً بدون انقطاع، وأحيانا أكثر من ذلك، وكان له عصا يتكئ عليها واقفاً بين يدي ربه، ثمّ في وقت من الأوقات التي كان يصلي فيها، كان واقفاً على عادته في عبادته إذ توفي، فظن جنوده أنّه في العبادة وبقي كذلك أياماً وتمادى شهوراً، ثمّ أراد الله إظهار الأمر لهم، فقدر أن أكلت دابة الأرض عصاه، قيل إنها الأرضة، التي تتغذى بالأخشاب فوقع وعلم حاله[٢]، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٤] كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الإنسان فظن أن ذلك القدر هو علم الغيب وليس كذلك، فالجن لم تعلم إلا الأشياء الظاهرة وإن كانت خفية بالنسبة إلى الإنسان، فتبين لهم الأمر بأنّهم لا يعلمون الغيب إذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الأعمال الشاقة ظانين أن سليمان حي، فكيف وهو تحت سمعهم وبصرهم ولم يعلم به[٣]. يقول الإمام الرازي: (وقوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سَبَإ الآية ١٤] دليل على أن المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير والخدمة عند نبي الله سليمان (عليه السلام)، لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين)[٤] .

ولنا في هذه الآية الكريمة موعظة وعبرة عظيمة فقد كشفت لنا حقيقة الجن، وتصححت تلك الصّور المشوهة الغامضة التي وقعت في أوهام كثير من الناس، بنسب الخوارق إليهم، وأنّهم يقدرون على فعل كل شيء، ولديهم قدرة مطلقة، وأنّهم يعلمون الغيب، ولهذا يلجأ كثير من الناس إلى محاولة الاتصال بالجن، كما يفعل العرافون والسحرة وغيرهم، ففي هذه خير

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٢٣٩١/٤).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٠٠/٢٥)، ونظم الدرر(١٦٤/٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٥٠١/٦)، واللباب في علوم الكتاب(٣٠/١٦).

(٤) مفاتيح الغيب(٢٠٠/٢٥).

دليل وبرهان وعظة[١].

ثالثاً: قصة حادثة الإفك.

إنّ حادثة الإفك قد كلفت أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً شديدة لا تطاق وكلف الأمة الإسلامية كلها تجربة من أشق التجارب، فقد علّق قلب نبينا ﷺ، وقلب زوجه أمّنا عائشة (رضي الله عنها) التي يحبها، وقلب خليله أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، وقلب الصحابي الجليل صفوان بن المعطل(رضي الله عنه) شهراً كاملاً علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق، حتى جاءت البراءة من السماء، فنزل قرآناً يتلى إلى قيام الساعة في براءة أمّنا عائشة (رضي الله عنها)[٢]. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النُّور من الآية ١٤ الى الآية ١٥] . أي: فلولا فضل الله عليكم لمسكم العذاب الأليم حين تلقفتم بألسنتكم حديث الإفك، وسؤال بعضكم عنه، وإكثار الكلام فيه، وقولكم ما لا تعلمون، وظنكم ذلك أنّه أمر يسير وسهل، وهو في حكم الله عظيم الخطر، ومن الكبائر، وهذا كله زجرٌ وعتاب على من تناقل الأخبار، وأفاض في الحديث. فهذه الآيات الكريمة التي جاءت في سورة النور، نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد[٣].

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجه السيدة عائشة الصديقة (رضي الله عنها)، فانقطع عقدها فانحبست في طلبه ورحّلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، وعلمت أنّهم إذا فقدوها، رجعوا إليها، وكان الصحابي الجليل صفوان بن المعطل السلمي(رضي الله عنه)، من وراء الجيش في أخريات القوم ، فرأى السيدة عائشة (رضي الله عنها) فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثمّ جاء يقود بها حتى نزل الجيش ، فلمّا رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاعوا ما أشاعوا، ووشى الخبر، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض الصحابة، وصاروا يتناقلون هذا الحديث، وانحبس الوحي مدة طويلة عن رسول الله ﷺ، وبلغ الخبر السيدة عائشة (رضي الله عنها) بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً بليغاً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم عليه ذلك الأمر. لقد تضمنت هذه الآيات في بدايتها وخاتمتها بيان

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن(٧٩٢/١١).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٩٨)

(٣) حادثة الافك قد ذكرت في الصحيحين وغيرها من كتب الحديث، ولم أذكر الحديث هنا لطوله فقد روته السيدة عائشة بجميع تفاصيل القصة، ينظر: الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري(ت: ٢٥٦هـ)، كتاب بدئ الوحي، باب حديث الإفك، رقم(٤١٤١)، (١٤٨/٥).

سبق الرحمة الإلهية، وإسباغ الفضل الإلهي على الفئة التي تورطت في ترداد الأخبار الملفقة، وتوبة الله عليهم، وما بين البداية والنهاية لوم وتقريع، وعتاب وتوبيخ، وأنّ مجرد التحدث في عرض أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) إيذاء كبير للنبي وزوجه ولآل أبي بكر. فيكون الخوض في مثل هذا ممنوعا[١].

أن المتأمل للنص القرآني وقد عبر عن تهاون الناس في تناقل اعراض الآخرين والنيل منهم بقوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النُّور الآية ١٥] ، فأن الله سبحانه وتعالى يحاسب على الكلمة أشد الحساب فرب كلمة أودت بصاحبها الى الهلاك، ورب كلمة أودت بأسرة إلى الفرقة، ورب كلمّة سفكت دماً، فكان من رحمة الله تعالى لهذه الأمة أن يرسم لها طريق النجاة ويحذرها من مسالك الشيطان .

* * *

(١) ينظر: أحكام القرآن: : لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: ٦٧١ هـ)، (٣٥٩/٣)، وتفسير القرآن العظيم(٢٠/٦)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٥٦٣)، والتفسير الوسيط، للزحيلي(١٧٣٩/٢).

المبحث الثالث

صور الهوان والمهانة بين أهل الطاعة والإيمان وأهل الكفر والعصيان

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: أهل الطاعة والايمان

أُنزِل القرآن الكريم على حضرة النبي ﷺ، ليكون نبراساً لنا، ومنهج حياة للبشرية، ولنصل به إلى رضا الله سبحانه وتعالى، ونكون من اهل الطاعة والإيمان. وقد ذكر الله لنا في هذه الآيات الكريمة صفات عباد الرحمن، التي يجب ان يتحلى بها العبد المسلم؛ ليفوز برضا الله (سبحانه وتعالى)، وسعادة الدارين، وقد وصف الله سبحانه وتعالى عباد الرحمن في هذه الآيات بإحدى عشرة صفة حميدة وهي: (التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والبعد عن الزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله)[٢]، وسوف أدرس هنا صفة واحدة، وهي موضوع بحثي (هوناً) صفة التواضع التي وردت بآية واحدة، بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣] .

(٢) الجامع لأحكام القرآن(٨٢/١٣).

فالإضافة بقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفُرۡقَان الآية ٦٣] جاءت للتشريف، أي أنّ الله شرّف عباده المؤمنين بأن نسبهم إليه، فهم العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه ، فما أحسنها من إضافة من محبٍّ لمحبوب، وإذا تأملْتَ وصف العبودية في القرآن لا تجدها إلاَّ لمَنْ يتصف بالطاعة، وصفة عباد الرحمن أنّهم إذا مشوا، يمشون هوناً، والهون الرفق واللين، فكانت مشيتهم بغير فخر ولا خيلاء ، ولا تبختر بل بتواضع ، ولين وسكينة ، ووقار وطمأنينة ، وحسن خلق ، وبشر وجه[١].

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، كما نرى من البعض اليوم، فقد كان سيدنا رسول الله ﷺ، إذا مشى كأنّما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره العلماء، المشي بضعف بدون سبب؛ حتى روي عن عمر (رضي الله عنه)، أنّه رأى شاباً جلداً يمشي رويداً، فقال: ما بالك! أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة[٢].

وكما قال حبيبنا رسول الله ﷺ: ((إذا أتيتم الصلاة فلا وأنتم تسعون وأتوها تأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا))[٣]،

وإذا انتقلنا الى سورة النساء لوجدنا صفة ثانية يتميز بها عباد الرحمن التي ذكرت في آيات الهوان والمهانة فهي، تمسكهم بالصلاة وعدم تركها حتى وهم في اشد الحالات من الخوف والقتال ؛ امتثالا لإمر الله (عز وجل)، وأمر رسوله) ﷺ: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النِّسَاء الآية ١٠٢] . وهذه الآية الشريفة لها سبب نزول وهو: أن المشركين لما رأوا الرسول ﷺ، وأصحابه قد صلّوا الظهر، ندموا إذْ تركوهم ولم يكبوا عليهم، فقال بعضهم لبعض: دعوهم فإن لهم صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائِهم، يعنون العصر، فإذا قاموا

(١) ينظر: تفسير السلمي: محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي(ت: ٤١٢هـ)، (٦٦/٢)، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت: ٧١٠هـ)،(٥٤٧/٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم(١٢١/٦)، والأساس في التفسير سعيد حوّى (ت: ١٤٠٩هـ) (٣٨٧٨/٧).

(٣) المسند الصحيح المختصر: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري(ت: ٢٦١هـ)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيا،(٤٢١/١)، رقم(٦٠٢).

فشدوا عليهم، فلما قاموا إلى صلاة العصر، نزل جبريل بهذه الآية[١].

فلو تأملنا قول المشركين (دعوهم فإن لهم صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم)، وخير الشهادة ما شهد بها الأعداء، فهذا إن دل على شيء، فهو يدل على عِظم الصلاة في نفوس المؤمنين، فهي ألذ وأمتع لحظات المؤمن، مع خالقه، فهو حين يناجي ربه في الصلاة، يجد الراحة والطمأنينة والأنس بالله عز وجل، وللأمام الرازي التفاتة جميلة لختم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النِّسَاء الآية ١٠٢] وهي أن في ذلك سؤال، وهو أنّه كيف طابق الأمر بالحذر، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النِّسَاء الآية ١٠٢]، والجواب: أنّه تعالى لمّا أمر بالحذر عن العدو أوهم ذلك قوة العدو وشدته، فأزال الله تعالى هذا الوهم بأن أخبر أنّه يهينهم ويخذلهم ولا ينصرهم أبدا؛ حتى يقوي قلوب المسلمين ويعلموا أنّ الأمر بالحذر ليس لِما لهم من القوة والهيبة، وإنّما هو لأجل أن يحصل الخوف في قلب المؤمنين، فحينئذ يكونون متضرعين إلى الله تعالى في أن يمدهم بالنصر والتوفيق[٢].

- **المطلب الثاني: أهل الكفر والمعاصي**

بعد تقرير صفات المؤمنين الذين ادخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى في المطلب السابق، نعرض في الصفحة المُقابِلة صورة أهل الكفر والعصيان، وما ينتظرهم من ذل وخسران، وهكذا الشأن في الأسلوب القرآني يذكر المتقابلات والأضداد، للعبرة والعظة، وبيان الفروق، لاختيار الإنسان ما فيه المصلحة، وهنا يتجلى الفرق الواضح بين أفعال المشركين الخبيثة وما يستحقونه من العذاب، وبين أفعال المؤمنين الحميدة وما يلاقونه من ثواب، وسوف أختار نموذجين فقط؛ لأهل الكفر والعصيان، لكثرة الآيات الواردة في هذه المطلب.

النموذج الأوّل: إمهال الله للكافر ؛ ليزداد إثماً:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٧٨] . أي: لا يحسب الكفار أنّ إمهالهم وإطالة عمرهم، والتوسعة عليهم، وعدم التضييق هو من باب الخير لهم بل على العكس، قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عِمْرَان الآية ١٧٨] . أي: ليزدادوا خطايا فيزدادوا عذابا. وَلَهُمْ عَذابٌ مذل ومخزي،. فالإملاء الذي يعقبه عذاب وإذلال، ليس خيراً لصاحبه، بل هو استدراج له[٣].

وهذا الكلام مع الكافرين فيه تكدير لهم، وقطع للذاتهم التي يجدونها بين أيديهم من أموال وبنين، وأن هذا الذي هم فيه، إنّما هو أشبه بما يقدّم للبهائم من طعام، لكي تكبر، ويكثر

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)، (ص:١٨٠).
(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٠٧/١١).
(٣) ينظر: تفسير المراغي(١٤٠/٤)، والأساس في التفسير (٩٤٦/٢)

لحمها، ثم تذبح!، كما يشير الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [مُحَمَّد الآية ١٢]، فإنّ الله سبحانه وتعالى إنّما أملى لأعدائه من الكافرين، والمشركين، والمنافقين، ومدهم بنعمه وأفضاله، ليقيم الحجة عليهم، ولتحسب عليهم هذه النعم، التي كان من حقها الشكر للمنعم بها، فاتخذوها أدوات لحرب الله ورسوله ، فكانت عليهم بلاءاً ووبالاً، قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المُؤمنُون من الآية ٥٥ الى الآية ٥٦] . وإنما قصد بهذا العرض لأحوال الكافرين، العبرة والموعظة للمؤمنين، لكي يثبت إيمانهم، وتقوّى صلتهم بخالقهم، ويزيدون في حمدهم له، أن هداهم إلى الإيمان، وسلك بهم مسالك المؤمنين. أمّا الكافرون فقد يستمعون إلى آيات الله تلك، التي تعرض الكفر والظلم في هذا العرض المخيف، ويرون منها نفس المصير الذي ينتظرهم، فيرجعون إلى ذاتهم، ويعدل عن موقفهم، ويصالحون ربّهم بالإيمان به، والموالاة لأوليائه[1].

ولو وقفنا قليلاً امام قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٧٨] . لوجدنا أنّ السياق يصل في هذه الآية الكريمة إلى عقدة تحيك في بعض الصدور، وشبهة تجول في بعض القلوب، وهي ترى أعداء الله وأعداء رسوله، متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر، مما يوقع الفتنة في ضعاف الإيمان؛ والجواب هو أنّ الله سبحانه وتعالى، لو علم أنّهم كانوا يستحقون أن يخرجهم الله من غمرة النعمة، بالابتلاء الذي يوقظ المبتلى لفعل ذلك، لكنه سبحانه لا يريد بهم خيراً، وهم قد اشتروا الكفر بالإيمان، وسارعوا في الكفر، فلم يعودوا يستحقون أن يوقظهم الله من هذه الغمرة، غمرة النعمة والسلطان بالابتلاء؛ لأن الابتلاء من الله نعمة لا تصيب إلا من يريد الله له الخير، فإذا أصابت المؤمنين، فإنّما تصيبهم لخير يريده الله لهم، فالحكمة المغيبة والتدبير اللطيف، وفضل الله على أوليائه المؤمنين كبير، ثمّ يكون مصير هؤلاء الكفار المتنعمين في الدنيا بلا بلاء هو: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٌ ١٧٨﴾ [آل عِمۡرَان الآية ١٧٨] والإهانة هي المقابل لما هم فيه من مقام ومكانة ونعماء في الدنيا[2].

النموذج الثاني: توبيخ الإنسان على قلة اهتمامه بالآخرة وفرط تماديه في الدنيا:

إنّ الثروة والغنى أو السلطة والجاه ليس دليلاً للعبد على رضا اللَّه ؛ لأنّ ذلك لا قيمة له عند اللَّه (عز وجل)، ولا الفقر وقلة المال يُعَد دليلاً على سخط اللَّه تعالى على العبد؛ فلذلك وَبّخَ الله تعالى الإنسان على قلة اهتمامه بأمر الآخرة، وفرط تماديه واهتمامه في إصلاح المعاش

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن(٦٤٩/٢).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (١/ ٥٢٤)

الدنيوي، واللَّه لا يريد من العبد إلا الطاعة والسعي للعاقبة الآخرة، وأمّا الإنسان فلا يريد ذلك، ولا يهمه إلا أمر الدنيا العاجلة وما يتلذذ به ويتنعم، **قال تعالى:** ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفَجْر من الآية ١٥ الى الآية ١٦] .

يخبر تعالى عن طبيعة حال الإنسان من حيث أنّه جاهل ظالم، لا علم له بعواقب الأمور، يظن الحالة التي هو فيها تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله له في الدنيا، وإنعامه عليه يدل على كرامته عند ربه وقربه منه، وأن الله لا يحاسبه على ما يفعل، فيطغى ويفسد في الأرض. ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ [الفَجْر الآية ١٦] أي وإن رأى أن رزق الله له لا يأتيه إلا بقدر أي: بقلة، ظنّ أنّ ذلك إهانة من الله تعالى له وإذلال لنفسه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفَجْر الآية ١٦] ، وهو في كلا الحالين مخطئ، ومرتكب أشنع وجوه الغفلة؛ لأن إسباغ نعم الله في الدنيا على أي أحد لا يدل ذلك على أن ذلك الشخص مستحق لها، ولو دل على هذا لما رأيت عاصياً موسَعاً عليه في رزقه، ولا شاهدت الكافر ينعم بصنوف النعم، ولعل من حكمة الله تعالى في بسط الرزق وسعته على بعض الناس وتضييقه وتقتيره على البعض الآخر؛ في أنّ وجدان المال وسعة الرزق قد يكون سبب للانغماس في الشهوات والمعاصي، وأنّه يكون قاطع عن الاتصال بالله تعالى، وأنّ في فقدانه وسيلة لتمحيص المرء وابتلائه وتنقيته ليكون من الصابرين الذين وعدوا بالجنة[1]، فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهي نعمة وليست نقمة[2].

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: تفسير المراغي(١٤٧/٣٠)، وتيسير الكريم الرحمن (ص:٩٢٣).
(٢) ينظر: تفسير الشعراوي(٥٠١٩/٨).

المبحث الرابع

صور الهوان والمهانة عند أهل الكتاب

وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول: ذم اليهود على سوء افعالهم.**

أنّ طبيعة اليهود تحيا وتعيش في نطاق من التعصب والحسد، فتشعر أن كل خير يصيب سواها كأنّما هو مقتطع منها، ولا يحبون الخير إلى لأنفسهم؛ لذلك عاش اليهود في عزلة يتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس الحسد والبغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد، فلليهود صفات ندر أن تجدها في غيرهم، لذلك نجد أن القرآن الكريم قد أفرد لهم مساحة كبيرة لم تخصص لغيرهم، فلا حجة لأي مسلم أن ينخدع باليهود وبكذبهم وبتزييفهم للحقائق، أمّا الصفات القبيحة التي ذم الله تعالى بها اليهود في القرآن الكريم فكثيرة وعديدة منها: نقضهم للمواثيق، ولبسهم الحق بالباطل، وأمرهم الناس بالبر ونسيان أنفسهم، وتحريف التوراة، وكتمان أوصاف النبي ﷺ، وغيرها الكثير من الصفات المذمومة التي وصف الله تعالى بها اليهود[١].

ومن تلك الصفات المذمومة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البَقَرَة الآية ٩٠] . أي: بئسما باعوا به أنفسهم، بأن استبدلوا الكفر بالإيمان على أنزل على نبينا ﷺ، فبدلا من تصديقه ومؤازرته ونصرته لأنّهم يعرفونه بأوصافه المذكورة عندهم، قاموا بأفعال مذمومة وهي الكفر والبغي، والحسد، والكراهية، ولا حسد أفظع من هذا الحسد؛ لأنّه معاندة مباشرة، واعتراض مباشر على الذات الإلهية المقدسة؛ لذلك باءوا بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ من الله تعالى، أي فرجعوا وهم مستوجبون لغضبين، قال ابن عباس(رضي الله عنهما): (بغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضبٌ بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم)[٢].

فرجعت اليهود من بني إسرائيل، بعد الذي كانوا عليه من الاستنصار بالنبي ﷺ والاستفتاح به، وبعد الذي كانوا يخبرون به الناس من قبل بعثته ﷺ أنّه نبي مبعوث، مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله تعالى نبياً مرسلاً[٣].

قال القشيري: (أنزلهم التحاسد عن مقر العزّ إلى حضيض الخزي، وسامهم ذلّ الصّغر حين لم يرضوا بمقتضى الحكم، فأضافوا استيجاب مقتٍ

(١) ينظر: في ظلال القرآن(٩٠/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم: لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي(ت: ٣٢٧هـ)،(٧٣/١)،

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٥١/٢)، والكشاف (١٦٥/١)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١٧٨/١).

آنف إلى استحقاق مقت سالف)[١]. وختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٩٠]، أي ولهم عذاب شديد مع الذل والإهانة؛ لأنّ كفرهم كان بسبب التكبر والحسد فقوبلوا بالإهانة والذل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافِر الآية ٦٠] أي صاغرين حقيرين ذليلين[٢]. والوصف هنا للتقييد والاختصاص، ومعناه أي أنّ هذا العذاب المهين خاص بالكافرين؛ لإذلالهم وإهانتهم؛ بخلاف العصاة من المؤمنين، فإنّ العذاب يجيء لتطهيرهم من الذنوب وليس للأذلال والإهانة[٣].

وأمّا الصفات الأخرى التي ذم الله تعالى بها اليهود المذكورة في موضوع بحثنا، فهي: البخل، وكتمان ما أنعم الله عليهم من فضله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النِّسَاء الآية ٣٧] . نزلت هذه الآية الكريمة في اليهود حين كتموا صفة النبي ﷺ، ولم يبينوها ويظهروها للناس، وهي مكتوبة عندهم في كتبهم[٤] . بل تجاوزوا الحد إلى أكثر من ذلك، فإنهم قاموا يتواصون بالبخل، ودعا بعضهم بعضا إليه،. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البَقَرَة الآية ٧٦]، وهناك قول ثاني: وهو على أن هذا البخل معناه البخل بالمال، فاليهود كانوا بخلوا بما أنعم الله عليهم من مال، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار ينصحونهم ، ويقولون لهم: لا تُنفقوا أموالكم، فإنّا نخشى عليكم الفقر، ولا تدرون ما يكون بعد ذلك، بل إن بخل اليهود بالمال أصبح مضرب الأمثال في الدنيا كلها، إذ لا يعرف شعب من الشعوب بالبخل كاليهود[٥]. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النِّسَاء الآية ٣٧] أي: وجعلنا للجاحدين نعمة الله سبحانه وتعالى، التي أنعم الله بها عليهم من المعرفة بأوصاف النبي ﷺ، المكذبين بها بعد معرفتها، الكاتمين نعته وأوصافه التي أمرَهم الله ببيانه الناس أولئك: لهم العقابَ المهين، الذي يهينهم ويذلهم ويُخزيهم [٦].

- **المطلب الثاني: تقرير كفر اليهود لفساد عقيدتهم وبطلان أعمالهم.**

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، فالإيمان بالله هو إيمان بوحدانيته سبحانه وتعالى، ووحدانيته تقتضي أن يكون الدين واحد، وهو الدين

(١) لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري(ت: ٤٦٥هـ)،(١٠٥/١).
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم(٣٢٨/١).
(٣) ينظر: روح المعاني (١/ ٣٢٢).
(٤) ينظر: أسباب النزول، للواحدي(١٥٦/١).
(٥) ينظر: التفسير البسيط(٥١٠/٦)، ومفاتيح الغيب (٧٩/١٠).
(٦) جامع البيان، للطبري(٣٥٥/٨)، والبحر المديد (٥٠٣/١).

الـذي ارتضاه للناس جميعـاً ويقتضي أن يكون الإيمان بالرسـل كذلك واحد، ووحدة الموقف اتجـاه هؤلاء الرسـل جميعا واحدة، ولا سـبيل إلى تفكيك هـذه الوحـدة؛ إلا بالكفر المطلق، وإن حسـبوا أو ظنـوا أنهـم مؤمنـون، فالإيمان ببعض الرسـل والكفر ببعض يعد كفرا مطلقا[١]، قال تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النِّسَاء من الآية ١٥٠ الى الآية ١٥١] . يتوعّد الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة الكافرين به وبرسله، من اليهود والنصارى، الذين فرّقوا بين الله ورسله في الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء، وكفروا ببعض، تعصّبا وحسداً وعناداً وتمسكاً بالأهواء والشهوات، فاليهود آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدا (عليهما الصّلاة والسّلام)، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ. فمن كفر بنبيّ من الأنبياء، فقد كفر بجميع الأنبياء؛ لأن الإيمان بسائر الأنبياء واجب، ولهذا وصفهم الله تعالى بالكفار بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النِّسَاء الآية ١٥٠] ، وهم بعملهم هذا يريدون أن يفرقوا بين رسل الله فيقولون: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النِّسَاء الآية ١٥٠] أي نحن نسلك طريقا وسطاً بين الإيمان والكفر. فهؤلاء أخبر سبحانه وتعالى عنهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النِّسَاء الآية ١٥١] فهذا التأكيد يزيل التوهم في إيمانهم، فهم الكاملون في الكفر، وكفرهم حق ثابت لا شك فيه ولا خلاف[٢]، وختم الآية الكريمة بعقوبة هؤلاء الكافرين، بقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النِّسَاء الآية ١٥١] أي: وأعددنا لكل كافر سواء أكان منهم أم من غيرهم، عذاباً فيه ذل وخزي وإهانة[٣].

* * *

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٧٩٨/٢).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب(٢٥٥/١١)، والجامع لأحكام القرآن(٥/٦)، وتفسير القرآن العظيم(٢٤٥/٢) .

(٣) ينظر: تفسير المراغي(٧/٦).

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذه الدراسة الموضوعية لآيات الهوان والمهانة في القرآن الكريم، يمكن إن أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها:

١- إنّ الآيات التي ورد بها لفظ الهوان والمهانة في القرآن الكريم ، هي ست وعشرون آية، ومعناها محصور بثلاث معاني، الأول: السكينة والوقار، كما في قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفُرْقَان الآية ٦٣] ، والثاني: بمعنى السهولة واليسر، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مَرْيَم الآية ٩] ، والثالث: بمعني الإهانة والخزي والذل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البَقَرَة الآية ٩٠] .

٢- ركّزت آيات الهوان والمهانة على أنّ كل ما في الكون خاضع لعزة الله تعالى وجبروته، وبينت القدرة الإلهية العظيمة على بدأ الخلق وإعادته، وأنّ كلّ شيء عليه هينٌ ويسير: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرُّوم الآية ٢٧] .

٣- ذكرت هذه الآيات كذلك القدرة العظيمة، والمعجزة الكبيرة على الخلق والإيجاد في ولادة أنبياء الله يحيى وعيسى (عليهم السلام).

٤- أنّ أكثر آيات الهوان والمهانة وردت في حق الكفار، فبينت حالهم وهم في الدنيا وكيف يعيشون بذَل وهوان، وعند الموت عندما تتلقاهم الملائكة بالتعذيب والتأنيب والوعيد وهم يستلون أرواحهم، ويوم القيامة عندما يلقون في العذاب الأليم المهين.

٥- ذكرت آيات الهوان والمهانة اهل الطاعة والأيمان، وقد مدحهم الله سبحانه وتعالى بصفتين، الأولى: أنّهم يمشون على الأرض هونا من غير تكبر ولا غرور، والصفة الثانية: أنهم متمسكين بالصلاة ولا يدعونها حتى وهم في أشد حالات الخوف والقتال.

٦- ورد ذكر الهوان والمهانة في القصة القرآنية في ثلاث مواضع مهمة، وهي قصة قبيلة ثمود، و قصة موت نبي الله سليمان (عليه السلام)، وقصة حادثة الإفك، لنستلهم منها الدروس والعبر.

٧- ذكرت آيات الهوان والمهانة اهل الكتاب ، وخاصة اليهود، وكيف وبخهم الله على سوء أفعالهم، مع ذكر بعض من صفاتهم الذميمة، كتبديل الحق بالباطل، والبخل وأمر الناس به، وكفرهم ببعض الأنبياء وإيمانهم في البعض الآخر، وغيرها من الصفات.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العلمين.

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١- الأساس في التفسير: سعيد حوّى(ت: ١٤٠٩ هـ)، دار السلام – القاهرة، ط٦، ١٤٢٤ هـ .
٢- أسباب نزول القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي(ت: ٤٦٨هـ)، تح: عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام، ط٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
٣- الانتصار للقرآن: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (ت: ٤٠٣هـ)، تح: د. محمد عصام القضاة، دار الفتح - عَمَّان، دار ابن حزم – بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .
٤- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الصوفي (ت: ١٢٢٤هـ)، تح: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، ١٤١٩ هـ .
٥- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت : ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ .
٦- التفسير البسيط: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي(ت: ٤٦٨هـ)،المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠ هـ .
٧- تفسير السلمي وهو حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي(ت:٤١٢هـ)، تح: سيد عمران، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، لبنان/ بيروت .
٨- تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧ م .
٩- تفسير القرآن العظيم: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازي(ت:٣٢٧هـ)، تح: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية ، صيدا .
١٠- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م .
١١- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب(ت: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة .
١٢- تفسير اللباب: أبو حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقي الحنبلي(ت: ٨٨٠ هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٣- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .
١٤- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ونماذج منه: أحمد بن عبد الله الزهراني: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنور، ١٤١٠ - ذو الحجة ١٤١٣ هـ .
١٥- التفسير الوسيط : د وهبة بن مصطفى الزحيلي،

دار الفكر – دمشق، ط١- ١٤٢٢ هـ .
١٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م .
١٧- جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الاملي الطبري(ت٣١٠هـ)، تح: احمد محمد شاكر، طبع مؤسسة الرسالة ، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م .
١٨- الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري(ت: ٢٦١هـ)، دار الجيل بيروت ، دار الأفاق الجديدة ـ بيروت .
١٩- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري(ت: ٢٥٦هـ)، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
٢٠- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١ هـ)، تح: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م .
٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(ت: ١٢٧٠هـ)، تح: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ .
٢٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)، تح: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .
٢٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣ هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .
٢٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: حمد بن علي بن محمد الشوكاني(ت:١٢٥٠)، دار الفكر، بيروت .
٢٥- الفوز الكبير في أصول التفسير: الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» (ت: ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة – القاهرة، ط٢- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
٢٦- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧- ١٤١٢ هـ .
٢٧- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت.
٢٨- لطائف الإشارات :عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ)، تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط٣.
٢٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .
٣٠- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الموصلي(ت: ٧٧٤هـ)، تح: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة – مصر، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٣١- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت: ٧١٠هـ)، تح: يوسف علي بديوي، راجعه قدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.
٣٢- مصنف ابن أبي شيبة في الاحاديث والاثار: للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ابراهيم بن عثمان ابن أبي بسكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)، ضبطه وعلق عليه: أ. سعيد اللحام الاشراف الفني والمراجعة والتصحيح: مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر - دار الفكر .
٣٣- المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي .
٣٤- المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم- دمشق، ط٤، ١٤٢٥هـ.
٣٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي(ت: ٨٨٥هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.
٣٦- ولله الأسماء الحسنى : عبد العزيز بن ناصر الجليل، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ،١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م.

❊ ❊ ❊